ثقافتنا حيال اوربا

تعليق على بيان جاستون زاليري [1]

لطفي فارس

التعليق

إنّ في الشعوب كما في الأفراد غرائز ركّزها ناموس الرجعة في العقل الباطن فاستقرّت فيه سيطرة على التفكير وقبول الانطباعات ، فاذا كان الفرد في تهوّره او انحطاطه ، وفي انجذابه أو نفوره ، يشعر من نفسه بمسيطر لا يتسنّ له التمرّد على شكيمته ، فالجماعات ايضاً لها مثل هذا النوازع يحدوها الى أهدافٍ تستقرّ مثُلُها العُليا فيها . وكما أن الفرد إذا افتيد مرغماً الى تطبيق حياته على غير السنن التي توافق وفطرته يضلّ السبيل ، فتنقلب بواعث اللذة والسعادة فيه الى مصادر ألم وشقاء ، كذلك تشقى الشعوب التي قضيّ عليها بأن تأخذ بسُنن غريبة عنها في تفكيرها وشعورها

إنّ للشعوب التي تحدّرت من الساميّة واستقرّت حوائزُ القومية الشرقية فيها بكرور الأجيال فطرة خاصة تتميّز عن الفطرة الآرية التي كانت اساساً للحضارة الغربية لاتينية وجرمنية ، وتتجلى هذه الفطرة في بلدان البحر الابيض المتوسط الآهلة بحفدة الاقوام الذين أصغوا الى أصوات موسى وعيسى وأحمد تخاطب فيهم ما ورثوه عن الرُعاة الأقدمين الذين تمرّدوا على على القوة بالحق وعلى الشرك بالتوحيد

على أنّ هذه الحوائز الكامنة في هذه الشعوب أرهقها عوادي الزمان أجيالاً فاستامت للجور ولكنها لم تُمِت الا لتراود أحلامها صروحُ مجدها الغابر وأنوار حضارتها المنطفئة

واذا نحن استعرضنا الصفحات التي خطّتها اقلام الكتاب على ضفات البحر المتوسط منذ بدأت حوائز الشعوب الساميّة تنتفض من سباتها على هذه الاقلام فاننا لنقرأ فيها ما انطوت عليه روح قوميتنا وما يتجه اليه شوقنا من حضارة تتآلف كل التآلف والحضارة التي تطرقت مؤخراً الى أسرنا ومجتمعاتنا عن مبادىء الآرية سواء أكانت شرقية من الفرس ثم غربية من الجرمن واللاتين

(١) انظر مقتطف يونيو ١٩٣٦ ص ٣٢ مقال « الساميّة في مؤتمر ثقافات البحر المتوسط »

على أن هذه الثقافة او الآداب الاجتماعية الشرقية السامية قد طرأ عليها شيء من التبدل في مظاهرها. فأن ابناء اسرائيل بعد ان شتتهم سبي بابل ثم جاء طيطوس هادماً هيكلهم سنة ٧٠ مسيحية تغلغل العدد الوفير منهم في الغرب مختلطاً بالشعوب الآرية فظهرت منهم فرق أهمها السفرديم في اسبانيا والبورتغال والاشكنازيم في روسيا والمانيا والمجر وهولاندا على ان هذه الفرق وان كانت بقيت محتفظة بالوسم السامي في باطنها وبتقاليدها الدينية في معابدها لم تسلم من التأثر في ثقافتها ونقلها بالمبادىء الغربية في نظم الحياة وأساليب التفكير. وهنالك المنفصلون الذين لم يستبقوا من الساميه الا الادعاء بها

لا ريب في أن اليهود هم، ان كانوا، أعرق الساميين نسباً، غير ان مرور تسعة عشر قرناً متوالية على من تغلغل منهم بين الشعوب الآرية على أنواعها لمما يؤثر تأثيراً عميقاً في آدابهم وأساليب تفكيرهم. على أنّ هذا التطور في الاخلاق المدنية، لا الدينية، بين مشتتي اليهود قد كان منهُ شيء من التأثير في ثقافة المتخلفين منهم في بلاد الغرب، وذلك بقوة الفعل المنعكس الذي لا بدّ للفرع من أن يتناول به أصله ولو الى حدّ محدود

وما يقال عن اليهود كسلالة ينطبق على المسيحيين تجاه مدنيات الرومان والجرمن والروس وعلى المسلمين تجاه مدنيتي الفرس والترك. أن المسلمين والمسيحيين لم يبرحوا أوطانهم الاصلية غير أن المسيحية والاسلامية انتشرتا في مدنيات من اصل آري لكلٍّ منها ثقافتها المدنية فكان من ذلك امتزاج شيء من هذه الثقافات الى اتباع عيسى وأحمد في بلاد الغرب

على هذا النمط وتحت هذا التأثير المثلث، تفككت او تراخت روابط المجتمع الشرقي فساد عقليته شيء من التدافع في حين أن الفطرة السامية الاصلية لم تزل كامنة فيه ولا تحتاج الا الى توجيه مسدّد في الفرق المذهبية لتجلّي آداباً واحدة تم على حضارة راقية تتحدر من القواعد الاساسية لليهودية والنصرانية والاسلامية، ولا يمكن لهذه الاديان السماوية ان تقف حائلاً دون هذا الاتحاد اذا ما تمرّى اتباعها مما دسته الآرية في نظم حياتهم ومناحي تفكيرهم، لانها راسية من حيث العبادة على التوحيد ومن حيث المعاملات على مكارم الاخلاق

إنّ الحضارة السامية كامنة في العقل الباطن لجميع الشعوب المنتشرة على ضفاف بحر الروم وهي وان خفيت بصورتها الإيجابية ظاهرةٌ جليًّا بصورتها السلبية لانها تمثل كل قوتها، ففي نفور اليهودية والنصرانية والاسلام في الشرق من مبادىء الالحاد والشرك بالله التي كانت اساس التفكير الآري والحضارات القديمة في الغرب، وفي نفورها ايضاً من التنظيم الاقتصادي ومن القواعد التي يبني الغرب حضارته عليها الآن ما يدل على استقرار مُثُل عليا في تفكير الشرق العربي السامي وفطرته للحضارة الطبيعية التي تتحدر من نظام الاسرة منذ عهد ابراهيم الى عهد محمد في الادوار الاربعة التي تجلّى الوحي فيها هادياً الى الصراط المستقيم في الحياة وفي المعاد. إن الاستاذ

زنا يبري كان مأخوذاً بروعة هذه المثل العليا عند ما وقف أمام تمثالي حضارة ملؤها القطرسة ليقول لهم

(أما وقد ظهرت انسانية منهمة بالبادىء الأدبية العليا ، فقد وجب أن تشمل الانسانية كلها)

إنها لجرأة أدبية شرقية بكل بساطتها وسموّها ، انها لكلمات مؤمن تشرّبت روحه مما التقط أثير الشرق من صرخات رعاته وملوكه الاقدمين ومواعظ رسله وأنبيائه

فاذا ما تقلقلت هذه العقيدة الصحيحة في نفوسنا جميعاً نحن ، وارثي الحضارة السامية على الضفاف الشرقية للبحر المتوسط الذي يدعوه هربو بحر الذكاء ، فما يضيرنا ما أتى به امثال أدوار دريمون في تآليفهم المشحونة افتراء علينا ، وما يضيرنا قول لويس برتران في جلسة ختام المؤتمر نفسه الذي تكلمت السامية فيه بلسان زنا يبري وترم ، اذ قال :—

(إني لا أحب أن يدعى الى هذه الوليمة الفكرية الخاصة بالبحر المتوسط ساميون وعرب وبربر فأني لا أشك في امكان الجمع بين هذه الشعوب والشعوب اللاتينية في فكرة واحدة للمثل العليا)

أجل ، ما يضيرنا هذا القول ونحن قادرون أن نحيب المسيو برتران بأن المثل العليا التي يباهي بها انما هي بذرات من أنوار عمرت هذه الشعوب التي يتهكم عليها فأنارت بها جدوده حين كانوا يضربون في حنادس الظلمات ويعبدون أربعة آلاف إله في أساطيرهم الرومانية ؟ بل نحن قادرون أن نسأله عن شكل حضارة قومه قبل الوحي وما كانت تقوم هذه الحضارة عليه لو لم يستنر الشاطىء الغربي للبحر المتوسط بما أشع على شواطئه الشرقية من أنوار . . . .

اذا كان المسيو برتران ، لاعتقاده بتفوق قومه علينا علماً وثقافة يعتقد بعدم إمكان الجمع بيننا وبينهم في فكرة واحدة للمثل العليا ، فاننا نحن أيضاً نشك في إمكان هذا الجمع بعد أن تضاءلت في الغرب الانوار التي ارسلها الشرق على آفاقه وبعد ان دفعت به سكرته المادية الى مجّ كل مبدأ لا يؤلهُ العنف ولا يقيم من اصنام الشهوات إلهاً . . .

إن السامية انارت الغرب طوال الاجيال غير ان إشعاعها لم ينفذ الاّ إلى ارواح العباقرة في شعوبه ، وهذه الآثار الأدبية الرائعة التي تهز النفوس والتي يباهي ابناء الجرمن واللاتين بها لا تفيض على المشاعر بفكرة الأ ويرى الشرقي وراءها آية من توراته أو انجيله او قرآنه . غير ان الغرب لم يعمل بهذه الروح في بناء حضارته بل كان يرجع ابداً الى فطرته القديمة في تنظيم سلطته ومجتمعاته فنشأت فيه هذه المشكلات الاجتماعية التي نرى من معضلاتها هدم بناء الاسرة وفناء النسل

استغرق الغرب في حضارته الآلية فتردت فكرته على الايمان وهذا نيتشه الكاتب الالماني الذي اقام اوروبا وأقعدها والذي تأخذ النازية بمبادىء اليوم وهي تنسب الى كل الشعوب التي تمت الى الآرية بنسب ، هذا نيتشه يقول في كتابه زردشت

(لقد كان هذا الاله الشرقي قاسياً في اوائل حياته ، لقد كان متعطشاً الى الانتقام ، فأعد جحيماً

لتسلية اصحابه ، ولكنه انقلب الى الضعف في أيام شيخوخته فصبح شيئاً رجيماً . لقد اصبح جداً هذا الاله بعد ان كان أباً بل هو الآن اشبه بجدة هرمة متداعية الى الفناء . ويقول أيضاً :

« ان هذا الاله كان مضطرب العقل مفعماً بالتناقض والغموض ، أبعدوا عن هذا الاله لغيرنا ألاّ يكون لنا مثل هذا الهاً . ان القسم الانسانية تشعر بالخلاص ، لقد مات إلهه وها نحن نتمتع بإرادتنا الحرة . ليحي الانسان المتفرق »

اذا كانت المثل العليا التي يتبجح بها المسيو برتران هي هذه ، فليتم بها هو ومن يحبذها من قومه ، فان الروح السامية لن تنفك تجد في جهادها الاكبر نحو هذا الاله الذي يدعوه (شرقيًّا) ليحقره بتحقيرنا وهو الاله الواحد الاحد رب الناس اجمعين

غير اننا نحمد الله على انهُ لم يزل في الغرب عباقرة يتقدون بسموّ ثقافتنا الروحية ، واذا كان برتران قد قال ما قال في المؤتمر ، فان المسيو جبريل بواسي الذي ترأس احدى جلساته قد هتف قائلاً :

(يجب أن لا ندرس مدنية البحر المتوسط كما ندرس مدنيه ميتة بل ككائن حي مليء بالقوى الدافقة والإشعاع)

وما هذه الشهادة الأولى بما في الشرق العربي من خوافز ومؤصلات ، ويعلم الاباء بيتا ما يفتقده دهاقنة الغرب في ثقافتنا ، غير انني ارى مما يتوافق والبحث الذي اتناوله عن الحالة الراهنة ايراد كلمات لكاتب الماني وشاعر اسباني نظرا الى الانسانية بعين مجردة عن هوى الاجناس فقال الاول وهو الاستاذ كيفاير : (تمشي النهضة الادبية في الاقطار العربية الثلاثة مصر والشام والعراق ، بخطى متساوية متوازية كأنما قلب خفّاق يهزّ بعاطفة واحدة ويتنفس عن شعور واحد) . وقال الثاني وهو الشاعر الاسباني فرنسيسكو فيلا سانزا في مقدمة ترجمته لقصيدة (على بساط الريح) للشاعر العربي الخالد المغفور له فوزي المعلوف

(ما هي الآثار الحديثة التي خلقتها ثقافة الغرب الروحية ؟ ! لقد حجّب الغرب انوار المسيحية الاولى ، وبدّل بالادب المستحدث ما في شعر المسيحية السامي من مؤاساة وحوّل فلسفتها الى أحاجٍ ومعميّات . ان جميع مكتشفات الغرب العجيبة ليست جديرة بكفكفة دمعة واحدة ولا بخلق ابتسامة ، وليس أجدر من اسم البحر المتوسط المحتفظة بالثقافة الشرقية والقائمة على اذاعتها بوضع حد نهائي لتدهور الغرب المشؤوم الى هوّة التوحش الاقتصادي . اذن فنسيم البحر المتوسط العليل هو القادر على تبريد هذه النشوة نشوة الخمر والذهب ، وحسب الغرب المسوس ما يتخبط فيه من نوب يستعلم بها الى أحط ملاذ المادة ضارباً عرض الحائط بأجل ما في الحياة من أمانيّ وأحلام

أما وقد وقف بين غلاة الثقافة الغربية من رفع منار السامية الشرقية عالياً ، أما وقد كان هذا السعي الميمون ما أهاب بالمؤتمر الى أن يسجل في جلسته الاخيرة دعوة المفكرين الى الاهتمام بالمدنيتين السامية والعربية وضمهما الى الدراسات اللاتينية، فاننا نرى الشرق العربي بعد هذا يواجه أمراً واقعاً لا بد له من اقتحامه، وهو ان يثبت أمام ممثلي حضارة الشواطىء الغربية للبحر المتوسط أن على الشواطىء الشرقية المقابلة له ثقافة تشع منها اليوم الانوار التي اهتدى بها الخافقان . وكيف يتسنى لنا ، نحن ابناء هذه البلاد أن نثبت بالفعل ما قاله عنا كلود فاريز في مؤتمر مونا كو اذ هتف قائلاً : —

لايجب ان نبحث عن الوارثين الحقيقيين لمدنية البحر المتوسط لأن كل الذين يقطنون هذه الشواطىء المتازة بجمالها وطيب مناخها متضامنون في هذه المدنية التي طبعتهم بطابعها الخاص ووحدت بينهم

أجل كيف يتسنى لنا القيام بهذا الواجب الذي يمليه علينا رماد القبور وتطالبنا به أسرة أطفالنا بل وأسرة اطفال الدنيا بأسرها . إنّ عدداً وفيراً من عباقرة الأمم الملهمين يولون وجوههم شطر بلاد الانبياء ومنشإ الفلاسفة الاحرار الاقدمين كأنهم يتوقعون منها اشراق نور هداية للشعوب المتدهورة في مهاوي المادية التي تنكر الانسانية بجحودها إله الانسانية

هل نحن ، يا ترى ، ذلك الجنين الذي تحوم روح الانسانية حوله لتحل فيه فتقيمهُ جسداً جديداً للحياة الجديدة . إنّ هذا التقمص المنتظر لن يتم بقيام أمة على أنقاض أمم بل بهبوب فكرة حية من مثاوي الوحي القديم تسود المدنيات الاوربية المتداعية بما أنزل على الشرق من وحي السماء

إنّ المدنية المنتظرة انما تقوم على إحياء الأسرة ورفعها على عرش قدسيتها من مهاوي الاغراق في الاستبداد بالمرأة ومن مزالق اطلاقها المتطرف المشين ، انها المدنية تقضي على تناكر المذاهب والجنسيات لإسعاد الانسان بالتعاون في كل أمة وفي كل بلاد ، انها المدنية تحتفظ بالعلم الذي قبض الغرب على ناصيته في جهاده الفكري لاخضاعه للنظم الاجتماعية الصحيحة المُستلهمة من الشرق لاصلاح الحياة . اذ لا خير في علم يبتدع الوسائل لاستذلال الطبيعة والتحكم بقواها الكامنة اذا صار هذا العلم ثقافة لا تميّز بين الجماد والاحياء فتدفع بهم جميعاً الى معصرة حضارة خلولة تستخرج الذهب من العناصر كما تستخرجهُ من دماء المستضعفين في الارض

إنّ علماً لا تتحكم فيه الثقافة الراقية الروحية لقوةٌ جامحةٌ مطلقة هوجاء تأتي الانسان بما يداوي به علله ولكنها تأتيه بالزمن نفسه بما يقتله ويبيد جنسه . وليس أشد فتكاً بالنوع البشري من اشراق علمه في دماغه وموت ايمانه في قلبه

إنّ الشواطىء الشرقية للبحر المتوسط لم تزل مستودع تلك الثقافة الروحية ، ولكنها نفسها مثقلة من نفاس الاحيان نائمة بين خراب هياكلها وآثار مدنيتها العافية

ومن جهة ثانية هذه الثقافة عباقرة الغرب وقد ملأت مؤلفات شكسبير وهوجو ودانتي وأقامت في الغرب كل ما هو جميل ونبيل حتى جاءت الحضارة الآلية تكافح هذا النبل وتقضي على هذا الجمال وهذه الثقافة نفسها هي المنبعة لأكبر كتابنا وخطبائنا وشعرائنا ، هي النسمة الخالدة التي أحيت كلمات مصطفى كامل وسعد وشوقي وحافظ ومطران وطه حسين وهيكل والمازني والمنفلوطي والرافعي والعقاد والعروف ومي وجبران والريحاني والملائط وبعاقص ومردم وأسطفان والزركلي وبشارة الخوري والياس ابو شبكة والزهاوي والرصافي والمكرزل والي ماضي والكاظمي و ... و ... و ... من هذه السلسلة الطويلة التي تماسكت حلقاتها فوق التراب وتحت التراب على ارض الشرق وعلى كل ارض نثرت هذه الحلقات المتماسكات عليها

ولكن ، أين من هذه الثقافة هؤلاء الأقوام المحيطون بالبحر المتوسط وهم طليعة ما في الشرق العربي من أقوام . إن بين هذه الشعوب والنابعين منها لمجالاً بعيداً ، فإن روح الشرق الهائمة فوق الاهرام والأرز وقامة بعلبك وهيا كل أورشليم ومآذن دمشق وقباب بغداد قد قبضت على مشاعر العباقرة منا ، ولكنها بقيت تمزق انزلاقاً على هذه الكتل الجددة المتلوية كالمقاصب وقد ساورتها هوج الرياح من كل جانب

أن الثقافة العربية السامية الشرقية التي تتجلى في أقوال عباقرتنا مشبعة بروح الصيانة والتساهل والعطف والاخاء من هذه الشعوب المقلدة التي تفقو حوافرها فيها

إنّ هذه النيالق الفكرية المستنيمة للدهر على ارض الوحي القديم قادةٌ يتجهون الى مُثُل عليا واحدة ولكنهم مختلفون في مناحيهم الفكرية متفرقون على أساليب تضعف تأثيرهم ما بددتهُ القرون من شعوب ، ويلوح لنا أن الأوان قد آن لتضافر الهيئات الادبية لعقد مؤتمرات سنوية تجمع بين مفكري الشرق العربي وتفتح المجال للمناقشة في الأسس التي يجب أن ترتفع عليها حضارتنا في تجددها

إنّ كلاً من سلالات العالم تنتضي الآن لتنمّ ما يمكن في قوميتها من حوافز وقد اتفقت جلّها أن لم نقل كلها على مناوءة السامية وإنزالها منزلة منحطة عن مراتب الشعوب الآرية ، فالأقوام المنتشرة في جزيرة العرب وفلسطين وسوريا ولبنان ووادي الفرات ووادي النيل والشواطىء الشرقية للبحر المتوسط وشواطىء البحر الاحمر تدعمها الحضارة الغربية وحضارة العالم الجديد بطابع التوكل والخمول ، وما ينسى المفكرون في الشرق تلك الحملات التي وُجّهت الى هذه الشعوب في اوربا وخاصة في العالم الجديد حيث وقف أدباؤنا وقفتهم التاريخية فهاجموا المتدين على كرامتنا ورددوا كيد المفترين

إنّ السامية في الشرق العربي لا تقف تجاه السلالات المتكئة على ذاتها في العالم كتلة تبني وحدتها على المميزات الجسمانية منتشة على العروق في الاعصاب ، بل هي تبنيها على المميزات الروحية

في جوانحه أصبحت مشتركة لكل سلالة قديمة قطنت هذه البلاد التي خضع عظماء العالم تحت سمائها الصافية رفوق أرضها المطهرة بدماء الشهداء من اجل الاخاء الانساني والحق المطلق

فاذا انتخى الجرمن واللاتين وسواهما من السلالات بالعرق ، فانما نحن نباهي بالفكرة بحية السماوية التي أقامت من شتاتنا أسرة واحدة . كلمة التعارف بينها اسم ربها مصدرها ومعادها

لا ريب في أنّ هذه الاسرة الروحية قد نزلت بها عوادي الزمان حقبة من الدهر يستطيلها الجاهلون ، ولكنّ العارفين يعلمون أنها أقصر من إن تقضي على مبادىء حضارة بقيت أربعين قرناً محوراً لتيارات الافكار في العالم

إنّ حضارة الغرب رغبتها بالرقي منذ بضعة مئات من السنين قبضت على تراثنا من العلوم الوضعية فسارت بها شوطاً بعيداً حتى حسبت أنها هتكت ستر المادّة بادراكها سرّ الفناء التوالي ولكنها عند ما توغلت ما وراء الحد الاخير رأت الجوهر الفرد الذي افترضته علة واجبة الوجود يتحوّل الى إشعاع ويتوارى عن العيان ، فأدرك العلماء الدهريون انهم يحدّقون بمجاهرهم الى مادّة لا كيان لها بذاتها وقد بدأ هؤلاء العلماء يفترضون وجود العالم الخفي كما كانوا يفترضون وجود الجوهر الفرد المادي من قبل ولن يطول الزمان حتى تعود حضارة المادة أدراجها نحو المبادىء السامية التي تواجه معضلات المجتمع بعين تسبر مظاهر المادة وبعين اخرى من الاحلام تواجه ابداً موضع الاسرار وشعاع الانوار

إنّ الغرب لما يزل يدوس الانسانية كأنها حلقات جسوم تتوارث الموت لا الحياة فلا يستغرب ان تأتي الخطوب التي يأخذ بها في مشكلات امور معضلات جديدة تستدعي بدورها حلولاً اخرى

أفليس من العبث أن يعمد الانسان الى اصلاح المادة بالمادة نفسها في حين أن مستقر القوى المصلحة انما هو في النفوس . وما غيّر الله من قوم ما لم يغيّروا ما في نفوسهم

ليس في هذه العجالة متسع للالمام باطراف الموضوع ، وقد أطلنا القلم قسطاً منه في غير هذا المقام ، فنكتفي الآن بتكرار الدعوة الى عقد المؤتمر الذي ترى الحوادث نفسها تدعو الى عقده وهل أجدر من مصر ميداناً له ومن احق من عرشها السامي بانشائه وعلى هذا العرش يجلس باعث انجاد البلاد العربية الآمر بانشاء المجمع العلمي والمؤتمر الموسيقي وفرقة التمثيل الحكومية ، وما اللغة التي يعنى المجمع بها وما الموسيقى والتمثيل الا بعض عناصر الثقافة او الآداب القومية التي تبنى عليها أنجاد الامم

إنا ونحن نسجل للاستاذ زنانيري خطوته الأولى تجاه أمم الغرب لاثبات ما لتفاقنا من ميزات نقترح باسم انسانية التي أصبحت الغربية قلبها الخفاق ولسانها المبين ، إقامة دار المتنبي العربي على ضفات النيل منارة عالية تشع بكل ما في الاقطار العربية من أنوار